مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

مختبر الحوار الخليجي
Gulf Dialogue Lab

أوراق ثقافية

المثقف وبريق السلطة

جمال القيسي روائي وكاتب أردني

مايو – 2025

العلاقة التاريخية بين المثقف العربي والسلطة ما فتئت تراوح منذ عقود طويلة، حالة ممتدة من الالتباس

ما زالت علاقة المثقف العربي بالسلطة السياسية تثير الكثير من عصف ذهني يستلزم تقصي البناء السيكولوجي الذي تقوم عليه الذهنية السياسية العربية السلطوية، ابتداء من حيث مدى قبولها والانفتاح على المكونات المعرفية الوزانة، والاعتراف بها ركائز تتشكل منها المجتمعات، وتدعم سيرورة بقائها مروراً بما يؤكده حضور المثقف بكليته المعرفية والإبداعية من فعل إنساني مؤثر يشكل سمتاً مثرياً ومنشئاً، لا كاشفاً فقط للهوية التي تطبع كل مجتمع، وتميزه بما له من بصمة عن أي مجتمع آخر

العلاقة التاريخية بين المثقف العربي والسلطة ما فتئت تراوح منذ عقود طويلة، حالة ممتدة من الالتباس، وهي لا تبدأ بطبيعة الحال من شاعر العربية المتنبي، وكافور الإخشيدي التي نتطرق لها بوصفها العلاقة الأكثر حضوراً، والمثال الأشد سطوعاً على هذا الالتباس الجذري المفاهيمي المعقد للعلاقة بين المثقف والسلطوي، فهي تبدأ من الذهنية السياسية السلطوية التي تنطلق من سذاجة معرفية من لدن السياسي "السلطوي تحديداً" بكينونة المثقف

فهو (أي المثقف) في نظر هذه السلطة، كيان جمالي محض، مزدان بنزعة مثالية حالمة، شخصية لا تتفق والواقع العملي الذي يشغل ذهن ويوم السياسي وليله، وهي شخصية تصلح فقط لتقمص دور البطولة في صفحات الأدب الرومانسي، ولا تتجاوزه إلى أرض الواقع، يزيد من غلواء وقتامة هذه النظرة البعيدة عن الموضوعية هالة حلم تملأ على المثقف حضوره، ويعتبرها السلطوي أداة إدانة إضافية للمثقف؛ فما هذه الأحلام والأمل بالقادم الأجمل سوى "يوتيوبيا" بعيدة المنال، لا أرض لها في غير خيال المثقف، ومن هنا، فإن المثقف وهو على هذه الصورة، لا يملك الشروط والأهلية الكافية التي يتوخاها السلطوي للتشارك معه في أي تجشم للمسؤولية من أي وزن سياسي.

الأمر لدى المثقف في الالتباس التاريخي المعقد وارد وحاضر، وإن كان على نحو مختلف؛ ففي الوقت الذي لا تخيب تقديرات المثقف في هشاشة السلطوي، ومقدار الأعباء التي تثقل كاهله، داخلياً وخارجياً، إلا أنه يفشل بفداحة، وتخيب فراسته في تقدير مكانته لدى السلطة على وجه الحقيقة

ينظر المثقف إلى ذاته كشريك فاعل وحقيقي وضروري في السلطة، ويسرف المثقف في تعريف مكانته من حيث البناء والأثر المعرفي الهوياتي الذي يلعبه في مجتمعه، وهي مكانة وإن كانت حقيقية بلا جدال، إلا أن السلطوي الغارق حتى أذنيه بماضوية لا تنفك تحكمه بصور مختلفة، وبكوارث الواقع الصلد، والخوف من المستقبل، لا يعترف بهذه المرجعية لسببين

الأول: إدراك السلطوي أن الاعتراف يهدد مكانة ومساحة السلطوي نفسه.

الثاني: الاعتقاد الراسخ لديه بقدرته الكاملة على تهميش هذا الكيان الزائد –أي المثقف– من خلال إغرائه ببريق السلطة

ينظر المثقف إلى ذاته كشريك فاعل وحقيقي وضروري في السلطة، ويسرف المثقف في تعريف مكانته من حيث البناء والأثر المعرفي الهوياتي الذي يلعبه في مجتمعه

إن اشتباك المثقف في مجتمعه مفترض وطبيعي، وهو يسير بتلقائية إيمانه بدوره ووجوده وتأثيره، تأثير أكبر وأهم من تأثير السلطة، وإن كان لا يظهر في الراهن المجتمعي بالنظر إلى أنه عملية حفر معرفية طويلة ومتأنية في وعي الأجيال، وتنطبع بها الجماهير سلوكاً وقناعات على المديات البعيدة، ولا بد للمثقف في خضم هذه الاشتباكات بحكم هذا الدور الحيوي من الاحتكاك بالسلطة

فهي من وجهة نظره الجهة المسؤولة عن مهمة الحفاظ على الإنسان، وتحضر هنا عبارة إدوارد سعيد: "إن مهمة المثقف تعكير صفو السلطة"، وهي تؤكد أهمية حضور هذا المثقف ضميراً حياً، والتحاماً عضوياً كي لا يصفو ماء السلطوي، فيهنأ بالأداء الضعيف، ويكتفي من مسؤولياته بذر الرماد في العيون، وليس من صاحب دور يقض مضجع رتابة السلطوي غير المثقف.

إن مهمة المثقف تعكير صفو السلطة"، وهي تؤكد أهمية حضور هذا المثقف ضميراً حياً، والتحاماً عضوياً كي لا يصفو ماء السلطوي، فيهنأ بالأداء الضعيف، ويكتفي من مسؤولياته بذر الرماد في العيون، وليس من صاحب دور يقض مضجع رتابة السلطوي غير المثقف.

تتناوب على المثقف العربي اجتراحات عديدة للخروج بسبل التغيير وهو يخوض مهمته التنويرية المتمثلة بالاشتباك المنطلق من دوره الأصيل، فتارة يتملك طريق النزوع للانخراط السياسي، والتشمير عن ساعدي العمل اليومي الذي يتهمه السلطوي بعدم القدرة على تجشم عنائه بـ"حكم براءته الفطرية وتركيبته الحالمة"، وتارة يضطر مرغما تحت سطوة الواقع، سلوك طريق "الانكفاء على الذات" بمسميات يخدع بها ذاته؛ فيسمي انكفاءاته ورجوعه إلى الصفوف الخلفية "عزلة إبداعية" مثلًا، وفي تلك الأثناء والظروف، يكتوي المثقف الذي اختار الاشتباك والانخراط في فضاء السلطة بنيران كثيرة؛ تبدأ بالكم الهائل من العصي التي يضعها السياسي في دواليب انطلاقته، وتحول دون قدرته على الإسهام ببث رؤيته البعيدة المدى، ولا تنتهي بحالة الشك والارتياب التي يخشى فيها السلطوي على مساحته وبقائه في ظل مثقف لا ينفك يعكر صفوه، الأمر الذي يدخل فيه طرفا المعادلة حالة مد وجزر؛ بين سلطوي سيمارس السبل كلها لابتلاع المثقف، ومحددات ذاتية داخل نفس المثقف تتربص به نحو التحذير الذاتي من السقوط في فخ التدجين

تتناوب على المثقف العربي اجتراحات عديدة للخروج بسبل التغيير وهو يخوض مهمته التنويرية المتمثلة بالاشتباك المنطلق من دوره الأصيل

إن "المونولوج" الداخلي في ذات المثقف إزاء انخراطه في السلطة، سيظل يتنامى على نسق ملحمي قد يوازن فيه المثقف بين وجوده وحريته ومقدار تبعيته، وحقيقته وزيف الواقع، ومثاليته وفجاجة الشروط الموضوعية للبقاء في فضاء السلطة، وقد يصل الأمر به، وهو على هذا النحو من المساءلة الداخلية، إلى حالة الندم واللحاق بركب رفيق هرب صوب الانكفاء الذاتي، أو "العزلة الإبداعية"، أو سينحو به التبرير إلى درجة التماهي مع خلاف قناعاته والقبول بالاحتراق في بريق السلطة

إن وصول المثقف إلى حالة التبرير، وهي إحدى وسائل الدفاع عن النفس حسب "فرويد"، مرحلة سقوط معرفي مدوية، ولا يمكن من خلالها الوقوف على تفسير مختلف عن صفة الانتهازية الشخصية التي طبعت المثقف الذي انزاح بكليته الإبداعية للتماهي مع استعلاء السلطوي.

إن وقوع "المثقف" في حالة التبرير للسلطوي ونفسه، إنما هي حالة استسلام وتراجع تصعب بعدها العودة؛ فقبول هذا "المثقف" أن يطوى تحت جناح السلطوي، تكلف المجتمعات خسارات إنسانية على المدى البعيد، وإنما بتراكم التجارب، وبما لا يخدم مطلقاً مكانة المثقف في الذاكرة الجمعية الإيجابية. لا ينطبق حال المثقف العربي في العصر الحديث على نظيره الغربي، بالنظر إلى اختلافات جوهرية وجذرية ومفاهيمية شاملة تدعو إلى التراجع حتى عن المقارنة.

إن المكانة التي يحظى بها المثقف هناك، جعلت من الثقافة طبقة لها حدودها وهيبتها وتقاليدها، وهي طبقة تشكلت بالمنجز المستحق واللافت في فضاء منظومة تعمل بتجانس وفق نظام إنساني ومعرفي وثقافي راسخ لا يحتمل غير الأصالة والتفرد والتميز، لا مجال فيه للادعاء، ولا تسمح حدوده – وبخاصة الثقافية – بالاختراق بأي صورة من أشكال الانتساب غير المشروع للوسط، كما تلك التسللات الماثلة أمامنا في بلادنا، والمرتبطة أصلاً بنهج السلطوية القائم على الارتجال في أدق شؤون الحياة ومسيرة الأجيال

إن المكانة التي يحظى بها المثقف هناك، جعلت من الثقافة طبقة لها حدودها وهيبتها وتقاليدها، وهي طبقة تشكلت بالمنجز المستحق واللافت في فضاء منظومة تعمل بتجانس وفق نظام إنساني ومعرفي وثقافي راسخ

إن تلك الطبقة الثقافية قد تشكلت بحكم فرط الموهبة، وإبداع حقيقي يبدأ بالدأب على المشروع الذاتي، ومحركاته العبقرية، والتفاني في العطاء، والانخراط في الفكرة حد التماهي، ودون أن يكترث ذلك المثقف بغضب السلطوي الذي يراه في مساحة بعيدة عنه، ولا يعنيه منه سوى البقاء على مسافة احترام من منجزه وإبداعه، ولا ينافسه على أي دور مهما تعاظم، حيث يرى المثقف نفسه على حقيقتها ومهماتها، وأدوارها المفترضة، ويزن انفتاحه على السياسي بميزان الذهب من الكرامة الشخصية، ويضع بينه وبين السلطوي مسافة محددة، يحظر فيها على السلطوي تجاوزها

تلك المسافة التي تجعله جديراً بمهمته كمثقف، والنظر من برجه العاجي إلى السلطوي وهو يجتهد أن لا يكون في مرمى نيران المثقف

يرى المثقف نفسه على حقيقتها ومهماتها، وأدوارها المفترضة، ويزن انفتاحه على السياسي بميزان الذهب من الكرامة الشخصية، ويضع بينه وبين السلطوي مسافة محددة، يحظر فيها على السلطوي تجاوزها

مركز الخليج للأبحاث
المعرفة للجميع

www.ar.grc.net

Gulf Research Center Jeddah (Main office)

19 Rayat Alitihad Street
P.O. Box 2134
Jeddah 21451
Saudi Arabia
Tel: +966 12 6511999
Fax: +966 12 6531375
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Riyadh

Unit FN11A
King Faisal Foundation
North Tower
King Fahd Branch Rd
Al Olaya Riyadh 12212
Saudi Arabia
Tel: +966 112112567
Email: info@grc.net

Gulf Research Center Foundation Geneva

Avenue de France 23
1202 Geneva
Switzerland
Tel: +41227162730
Email: info@grc.net

Gulf Research Centre Cambridge

University of Cambridge
Sidgwick Avenue,
Cambridge CB3 9DA
United Kingdom
Tel:+44-1223-760758
Fax:+44-1223-335110

Gulf Research Center Foundation Brussels

Avenue de
Cortenbergh 89
4th floor, 1000
Brussels
Belgium